مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (2)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (2) 2013

# اللغة بين الماهية والاستثمار

**الدكتورة خديجة حسين***

**(تاريخ الإيداع 16 / 8 / 2011. قبل للنشر في 2 / 4 / 2012)**

## □ ملخّص □

يحاول هذا البحث الخوض في ماهية اللغة وفق رؤية مستحدثة تنظر إليها من حيث هي وجود مادي مثبت قابل للتفاعل مع ما في الوجود من أشياء، كما يحاول تلمس المستوى الذي تقبل فيه اللغة القياس، بغية وضع استشراف أولي للارتقاء بها، والنهوض بقواعدها لتكون أيسر وأبسط من جهة، وأعود بالنفع على الاستثمار العام من جهة أخرى .

وهو إلى ذلك محاولة جادة لتوصيف اللغة وإمكاناتها المختلفة توصيفاً جديداً يسمح بتفجير طاقاتها الكامنة، التي لم يسلك في مجاهيلها من قبل ، أو بمعنى آخر المستويات والزوايا التي ما زالت بكراً في التفكير اللغوي .

**الكلمات المفتاحية :** وظائف اللغة، الاستثمار، الطاقة الكامنة.

* **قائم بالأعمال – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية الثانية – جامعة تشرين – طرطوس – سورية.**

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (2)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (2) 2013

# Language' Essence and Pragmatism
# Language Essence and Investment

**Dr. Khadijeh Hussein***

**(Received 16 / 8 / 2011. Accepted 2 / 4 / 2012)**

## □ ABSTRACT □

This research is an attempt to explore the fundamentals of language on the basis of modern vision which examines language as something tangible and interactive. It also traces the measurable level of language in order to improve and develop language , and to simplify its grammatical rules as well as its usage .This paper also tries to describe language and its potentials which haven't been examined before, in other words the perspectives which are still unknown in linguistic thought .

**Key words:** functions of language, Pragmatism, the potentials of language .

***Academic Assistant, Arabic Department at second Faculty of Arts Humanities, Tishreen University, Tartous , Syria**

## مقدمة:

لا شك في أن لدراسة الخصائص اللغوية قيمة كبرى في ميدان البحث اللغوي، فهي المنطلق السليم لكل عمل لغوي، وخاصية الإيجاز من أهم الظواهر التي تمتاز بها اللغة العربية عن باقي اللغات، وقد مدحه العرب وأثنوا عليه كلما تكلموا في لغتهم؛ إذ يكفي أنهم عندما عرّفوا البلاغة جعلوه في معنى من معانيها، فقالوا: البلاغة الإيجاز، تبيانا لقيمته وحرصاً عليه. بل إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) –وهو أفصح العرب– قال: لقد أوتيت جوامع الكلم، وإن خير الكلام عند العرب ما قل ودل، فقد جعله فضلا مما آتاه ربه. فالإيجاز إذاً من أبرز خصائص اللغة العربية؛ نجده في حروفها وألفاظها وتراكيبها، منطوقة أو مكتوبة ، من ذلك مثلا أننا لو ترجمنا كلاما مكتوبا بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية خمس الأصل أو أكثر، وذلك من مزاياها: تعبر عن المعنى الكثير باللفظ القليل، وهو ما ينشده الإنسان بطبعه، حيث يميل إلى الاختصار اقتصاداً في المجهود العضلي. وتطغى ظاهرة الاقتصاد على كثير من الظواهر اللغوية وعلى الاستعمال اللغوي عموما، حين لا يكون هناك لبس أو إبهام، ولا يعد ذلك منقصة في اللغة التي تلجأ إليه، وإنما هو أمر محمود . ولعله الذي دعا العرب إلى تكثير ما يستخفون وتقليل ما يستثقلون ، وأيد هذا المبدأ اللغويون المحدثون، فجعلوه أصلاً في كثير من ظواهر التطور الصوتي في لغات عديدة. ولا تقتصر قضية الهروب من الثقل إلى الخفة على الأحكام الصرفية فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى الأحكام النحوية، فكم من صور التأليف يحس الإنسان بنبوها على لسانه، فيحكم بأنها غير مستساغة .

والاقتصاد اللغوي المحمود أن يكون هناك تكافؤ وتوازن بين المجهود العضلي أو الفكري وبين الفائدة المرجوة من وراء ذلك، أي أن ما يبذله الإنسان من جهد في صياغة كلمة أو اختيار صيغة من الصيغ يجد له ما يعادله من الفائدة ومن محصول التفاهم بهذه الصيغة المختارة ومن ثم فالصيغ التي تخل بهذا التوازن ولا تفي بالغرض الذي من أجله وضعت هي بمثابة جهد ضائع، ولهذا وجب إهمالها .

## أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية هذا البحث من النظرة المستحدثة للغة التي يطرحها ، وكذلك فإنه يجول في أساليب استثمارها مقدماً إياها كسلعة ذات قيمة وهو منظور جديد في التعامل مع اللغة ، كما أنَّ هذا البحث يوصف إمكانات اللغة ويقف على ما تحتويه من أسرار تجعل لها أبعاداً أخرى في التداول وتخلق لها مضامين في النص ذات قيم لغوية وأدبية جديدة .

## منهجية البحث:

يحاول البحث أن يتابع استقراء اللغة استقراء جديد الرؤية ، ومن ثمَّ فإنه ينظر نظرة توصيفية تسمح بتحليل واعٍ لمعطيات اللغة وسلوكها في استخدامها وفي حياتها الأدبية داخل النصوص ، فهو يستقرئ ثمَّ يوصّف ويحلّل . فيسلك مسلك المنهج الوصفي التحليلي ، مع لحظ المنهج المقارن في المعالجة .

### في تعريف اللغة:

لقد اختلف العلماء في تعريف اللغة ومفهومها، وليس هناك اتفاق شامل على مفهوم محدد للغة ويرجع سبب كثرة التعريفات وتعددها إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم، فانتقاء تعريف لها ليس بالعملية اليسيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

1. يعرفها ابن جني [1] بقوله : (( أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم )) .

2. اللغة نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية يتم بواسطتها التعارف بين أفراد المجتمع ، تخضع هذه الأصوات للوصف من حيث المخارج أ والحركات التي يقوم بها جهاز النطق ومن حيث الصفات والظواهر الصوتية المصاحبة لهذه الظواهر النطقية[2] .

3. ظاهرة اجتماعية تستخدم لتحقيق التفاهم بين الناس [3].

4. صورة من صور التخاطب سواء كان لفظياً أو غير لفظي .

5. اللغة كما يقول ( أوتو يسبرسن ) : نشاط إنساني يتمثل من جانب في مجهود عضلي يقوم به فرد من الأفراد ، ومن جانب آخر عملية إدراكية ينفعل بها فرد أو أفراد آخرون .

6. اللغة نظام الأصوات المنطوقة .

7. اللغة معنى موضوع في صوت أو نظام من الرموز الصوتية [4].

8. ادوارد سابيير : اللغة وسيلة إنسانية خالصة ، وغير غريزية إطلاقا ، لتوصيل الأفكار والأفعال والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية [5] .

9. انطوان ماييه : إن كلمة ( اللغة ) تعني كل جهاز كامل من وسائل التفاهم بالنطق المستعملة في مجموعة بعينها من بني الإنسان بصرف النظر عن الكثرة العددية لهذه المجموعة البشرية أو قيمتها من الناحية الحضارية .

10. اللغة نشاط مكتسب تتم بواسطته تبادل الأفكار والعواطف بين شخصين أو بين أفراد جماعة معينة ، وهذا النشاط عبارة عن أصوات تستخدم وتستعمل وفق نظم معينة .

**في وظائف اللغة:**

لقد حاول " هاليداي " Halliday تقديم حصر بأهم وظائف اللغة فتمخضت محاولاته عن الوظائف الآتية:

1) الوظيفة النفعية ( الوسيلية ) :

وهذه الوظيفة هي التي يطلق عليها " أنا أريد " فاللغة تسمح لمستخدميها منذ طفولتهم المبكرة أن يشبعوا حاجاتهم وأن يعبروا عن رغباتهم ..

2) الوظيفة التنظيمية :

وهي تعرف باسم وظيفة " افعل كذا .... ولا تفعل كذا " من خلال اللغة يستطيع الفرد ان يتحكم في سلوك الآخرين ، لتنفيذ المطالب أو النهي و وكذا اللافتات التي نقرؤها وما تحمل من توجيهات وإرشادات ...

3) الوظيفة التفاعلية :

وهي وظيفة " أنا و أنت " تستخدم اللغة للتفاعل مع الآخرين في العالم الاجتماعي باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع الفكاك من أسر جماعته ، فنستخدم اللغة في المناسبات، والاحترام، والتأدب مع الآخرين .

---

[1] **الخصائص أبو الفتح ابن جني ج/1ص/33 عالم الكتب تح/ محمد علي النجار**

[2] **في التحليل اللغوي د/ خليل احمد عمايرة مكتبة المنار ط/1 /1987م**

[3] **سيكولوجية اللغة والمرض العقلي د/ جمعة سيد يوسف ص/ 51 سلسلة عالم المعرفة /الكويت/145/1/1990م**

[4] **سيكولوجية اللغة والمرض العقلي د/ جمعة سيد يوسف ص/ 56 سلسلة عالم المعرفة/الكويت/ 145/1/1990م**

[5] **الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام ص/47 سلسلة كتاب (الأمة) ع/84رجب1422هـ**

4) الوظيفة الشخصية :

من خلال اللغة يستطيع الفرد أن يعبر عن رؤاه الفريدة ، ومشاعره و اتجاهاته نحو موضوعات كثيرة ، وبالتالي يثبت هويته وكيانه الشخصي ويقدم أفكاره للآخرين .

5) الوظيفة الاستكشافية :

وهي التي تسمى الوظيفة " الاستفهامية " بمعنى انه يسأل عن الجوانب التي لا يعرفها في البيئة المحيطة به حتى يستكمل النقص عن هذه البيئة .

6) الوظيفة التخيلية :

تتمثل فيما ينسجه من أشعار في قوالب لغوية ، كما يستخدمها الإنسان للترويح ، أو لشحذ الهمة والتغلب على صعوبة العمل ، وإضفاء روح الجماعة ، كما هو الحال في الأغاني والأهازيج الشعبية ...

7) الوظيفة الإخبارية ( الإعلامية ) :

باللغة يستطيع الفرد أن يتقل معلومات جديدة ومتنوعة إلى أقرانه ، بل ينقل المعلومات والخبرات إلى الأجيال المتعاقبة ، وإلى أجزاء متفرقة من الكرة الأرضية خصوصاً بعد الثورة التكنولوجية الهائلة . ويمكن أن تمتد هذه الوظيفة لتصبح وظيفة تأثيرية ، إقناعية ؛ لحث الجمهور على الإقبال على سلعة معينة أو العدول على نمط سلوكي عير محبب .

8) الوظيفة الرمزية :

يرى البعض ان ألفاظ اللغة تمثل رموزاً تشير إلى الموجودات في العالم الخارجي ، وبالتالي فان اللغة تخدم كوظيفة رموزية . [6]

**اللغة والنص:**

اللغة هي المادة الخام التي تصنع منها النصوص، والمادة الأهم في محاولة التعبير عن شيء ما أراده واضعو النصوص ومنتجوها. ومنتج النص في تعامله مع اللغة، قد يعتبرها مجرد أداة توصيل، غايتها حمل فكرة ما بأمانة، لذلك يكون حرصه شديداً على التحديد والدقة والوضوح، مع إمكانية نجاحه أو إخفاقه في ذلك. وهذا ما نجده في نصوص النحاة، والمناطقة، وعلماء الطبيعة، وعلماء الرياضيات، والمؤرخين، والفقهاء.. والقانونيين.. وإلى حد ما الفلاسفة.. هذا من جهة، ومن جهة ثانية قد يعتبر منتج النص اللغة مادة خاماً لا تقل أهمية عن المضمون الذي تتصدى لحمله، فيعمد إلى تشكيلها جمالياً، ويعتني عناية فائقة بشكل التعبير وأساليبه، بقصد إثارة إعجاب القارئ ودهشته، والسيطرة على وجدانه بالدرجة الأولى.. وهذا ما نجده في النصوص الأدبية والدينية.. وإلى حد ما مرة أخرى في النصوص الفلسفية.. وإذا كنت وضعت النص الفلسفي بينْ بينْ، من هذه الناحية، فلأن الفلسفة والأدب كثيراً ما تداخلا في مساحات كبيرة من الخطاب الذي ينتجانه.. وكثيراً ما تفلسف الأدباء.. وكثيراً ما تأدب الفلاسفة والنصوص من الفئة الأولى، التي تندب نفسها للإعلام والإخبار والتأريخ والبرهان.. تطمح لتحقيق معادلة تكافؤ الدال والمدلول، بحيث لا يفهم منها إلا معنى واحد بعينه. وبرأي (الجرجاني صاحب كتاب التعريفات) أن هذا النوع من النصوص هو الذي ينطبق عليه حد النص حيث يقول: "النص، ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وقيل ما لا يحتمل التأويل" ومن هنا قيل: (لا اجتهاد مع النص) فإن حصل النص على هذه الميزة يكون قد حقق نجاحاً باهراً.

**[6] سيكولوجية اللغة والمرض العقلي د/ جمعة سيد يوسف ص/22 وما بعدها بتصرف . سلسلة عالم المعرفة/الكويت/ 1990/1/145م**

وهذا النوع من النصوص فقير "ليس بالمعنى الأخلاقي للكلمة"، لأن النص لا يحوز إلا على معنى وحيد، وهذا سر عظمته.. وكل قراءة له إنما تهدف إلى امتلاك هذا المعنى الوحيد، والفوز به، والإمساك بناصيته.. عبر عملية شرح وتفسير، قد تكون سهلة وقد تكون غير ذلك، حسب طبيعة النص ومستوىالقارئ.[7]

أما النصوص من الفئة الثانية، فإنها تسعى نحو تشكيل اللغة في أشكال تعبيرية باهرة ومدهشة ومفاجئة.. وغالباً ما يكون ذلك هدفاً بحد ذاته، بل غالباً ما يكون ذلك هو الهاجس الأول الذي يؤرق منتج النص على حساب مجرد الإعلام والإخبار والوصف والبرهان والتأريخ.

والنص، في هذه الحالة، نص غني، حمّال أوجه، تحطمت فيه، عن قصد وسابق تصميم، معادلة تكافؤ الدال والمدلول، ليكون متعدد الدلالات، ومالكاً لطاقات كثيرة تتيح له التجلي في معانٍ متعددة، حيث يكتب من جديد مع كل قارئ، ومع كل قراءة.. وكلما كان النص قادراً على القيام بهذه المهمة، بدا نصاً أكثر عظمة؛ وعملية استقراء وتقص جادة تدل على أن أهم ميزات هذا النص ابتعاده عن الجزئيات، وتعاليه عن الخوض في التفاصيل، واعتماده على المجمل من القول، وعلى المبادئ العامة والكليات والتعميمات.. إلى جانب الحرص على الإيجاز والتكثيف والاقتصاد..

ومن الخطورة بمكان أن تتورط نصوص من الفئة الأولى في استخدام أساليب نصوص الفئة الثانية.. مما يؤدي إلى الخلط والتخبط..

وأزعم، وأرجو أن أكون مخطئاً، أن النصوص العربية، في مجملها، وبغض النظر عن الموضوع الذي تعالجه، تنتمي إلى النوع الثاني.. وأرجح أن يكون أحد الأسباب التي أدت إلى ذلك هو الطبيعة الخاصة للغة العربية، والطبيعة الخاصة لجهاز التلقي عند القارئ العربي عموماً، وهو جهاز تم توليفه وإعداده لتلقي النصوص الفنية، ذات الأسلوب البياني، أكثر مما أعد لتلقي النصوص العلمية المحددة (كما ذهب إلى ذلك د. زكي نجيب محمود، خصوصاً في كتاب الشرق الفنان).

فكل منتج للنص العربي، حاول أن يدخل في مباراة مع اللغة، وأن يضفي على أسلوبه مسحة جمالية أدبية، فاعتمد على المجمل من القول، وعلى التلميح، وعلى الكليات.. دون أن يكلف نفسه عناءالتحليل، والتفكيك، والبرهان..

لذلك نجد أن أغلب النصوص العربية نصوص بيانية أدبية متعددة الدلالات والتأويلات.

أرجو الاّ يفهم من كلامي السابق أنني أحاول أن أضع إشكالية وضوح وتحديد النصوص، أو غموضها وتعدد دلالاتها، في شرنقة اللغة وكيفية التعامل معها، وأتجاهل، بالتالي، الأبعاد الأخرى، الضرورية، لفهم النص، والتعامل الصحيح معه (إن كان ثمة تعامل صحيح وتعامل خاطئ).. وأتجاهل كذلك أن اللغة بحد ذاتها، إنْ هي إلا نتاج اجتماعي، تحمل في ألفاظها، وأنماط تعبيرها، وتطورها، صورة صادقة ومعبرة عن المجتمع الذي ولدت فيه.. بل إن هذا من أشد ما أومن به.. لذلك، وانطلاقاً من الفكرة الأخيرة، أتعجب من زعم (د. محمد عابد الجابري في كتابه بنية العقل العربي)، وممن جاراه في رأيه دون رويّة، بأننا ما زلنا أسرى لغة الأعرابي، الجاهلي، ساكن الصحراء، نطلق مسمياته على نتاج عصرنا؟! لأن هذا من التهافت الواضح، بحيث ما كان ليحتاج إلى رد أصلاً، لولا ما نراه من تقبل لهذه المزاعم.. ذلك أن اللغة كثيراً ما شبهت بالكائن الحي، وأشبُهها بالكائن الاجتماعي.. فهي تتطور بتطور المجتمع، تغتني بغناه وتفتقر بفقره.. وعندما توجد في البيئة أشياء جديدة لا بد أن تسعى اللغة، مضطرة، إلى تسمية تلك الأشياء، والتعبير عنها بأنماط جديدة من القول..

---

**[7] – النصّ و الممانعة– محمد راتب الحلاق، مقاربات نقدية في الأدب والإبداع –من منشورات اتحاد الكتاب العرب–1999،ص11.**

وعندما تكون البيئة غنية بالأشياء.. والأحداث.. والصناعات.. والمنتجات.. وعندما يكون العلم والبحث العلمي .. والفكر.. والفلسفة.. في حالة متقدمة ومزدهرة.. وعندما يكون المجتمع الذي يتكلم اللغة مجتمعاً مستقراً، تحكمه مؤسسات مدنية متطورة، وتقوده سياسة واضحة.. يؤدي (ذلك كله) إلى ازدياد مفردات اللغة من جهة، وإلى ابتكار أساليب جديدة في التعبير من جهة ثانية.. فاختراع آلة جديدة سيستتبع بالضرورة إيجاد اسم لها، ولأجزائها، ولمنتجاتها.. كما سيستتبع بالضرورة كذلك أنماطاً من السلوك الجديد للتعامل معها ومع منتجاتها، وأنماطاً من القول والتعبير لم تكن معروفة... وهذا الأمر مستمر لا يتوقف إلا بتوقف الاختراع والإنتاج.. ووضع اسم للآلة المبتكرة، وللسلعة الجديدة المنتجة، يشبه تماماً عمل واضع اللغة ابتداءً.. فعملية وضع اللغة مستمرة، ولا تتوقف إلا بتوقف متكلميها عن التقدم.. أما أن يقال بأن اللغة العربية باتت متخمة بألفاظ ومصطلحات أوربية (وأجنبية عموماً) فالأمر يعود إلى ضعفنا وتأخرنا في ميادين العلم والصناعة والإنتاج، ولا يعود إلى ضعف اللغة العربية.. وحال لغتنا في هذا المجال حال كل اللغات التي تتكلمها شعوب غير متقدمة علمياً وصناعياً واجتماعياً.. (وإن كانت اللغة العربية تمتاز باستنادها إلى حضارة عريقة). ومن الطبيعي أن من يستورد النظريات العلمية، والتقنية، والسلع المصنعة.. فإنه سيستورد معها أسماءها ومصطلحاتها، وأنماط السلوك التي ترافقها، وأنماط التعبير وقوالبها الخاصة بها.. ويستورد، من ثم، مضطراً ، أنماطاً من القيم والعلاقات الإنسانية (الاجتماعية /الاقتصادية/ السياسية..) مع ما في هذا من خطورة، ليس على اللغة فحسب، وإنما على المجتمع والأمة ككل. فلو أننا كنا المنتجين الأوائل لهذه السلع لكانت الأسماء العربية التي كنا سنطلقها عليها هي التي ستغزو اللغات الأخرى.. ولو كنا نحن المتقدمين في ميادين العلوم المختلفة لكانت المصطلحات العربية هي التي ستغزو بقية اللغات (وقد حدث هذا من قبل) ولننظر إلى مثل بسيط يؤيد ما نذهب إليه فكلمة (انتفاضة) دخلت لغات العالم قاطبة، ليس لأن تلك اللغات عاجزة عن إعطاء المرادف أو البديل، بل لأن ثوار الأرض المحتلة قد أطلقوا هذه الكلمة على فعالياتهم ذات الطابع الخاص في مقاومة قوات الاحتلال الصهيوني.. فاستخدمت كلمة الانتفاضة بعد ذلك في كل اللغات للدلالة على حالات مشابهة في أماكن مختلفة. ومما يدل على تهافت رأي (الجابري) ومن جاراه، أن اللغة العربية حين خرجت من الجزيرة العربية، ومن أطراف بلاد الشام والعراق، ودخلت أقطاراً وأمصاراً جديدة، وعاشت في ظل حياة سياسية واجتماعية واقتصادية ومعرفية وجغرافية جديدة.. أوجدت ألفاظاً وأنماطاً لغوية جديدة، لها نكهة أخرى.. وقد اختلفت هذه النكهة من عصر إلى عصر، ومن مصر إلى مصر.. وهذا ما يعرفه المبتدئون بدراسة الأدب واللغة. النصّ و الممانعة – مقاربات نقدية في الأدب والإبداع – محمد راتب الحلاق دراسة – من منشورات اتحاد الكتاب العرب

http://www.awu-dam.org/book/00/study00/243-n-h/book00-sd002.htm

وقبل أن أغادر البعد اللغوي في دراسة النص وقراءته، لا بد من الإشارة إلى قول القائلين: إن اللغة، بأنماط تعبيرها، ونحوها الخاص، وقوالبها.. تعوق، بوعي أو دون وعي، عمل الكاتب والمتكلم.. بل إن بعضهم (فرويد، كلودليفي شتراوس...) يذهب إلى القول بأن اللغة هي التي تتكلم عبر الفرد، حيث يصبح (موضع كلام) أكثر منه متكلماً.. وهذا ما يزعمه كذلك بعض الشعراء، حين يدعون أن القصيدة تكتب نفسها.. حيث تمارس اللغة على (الشاعر.. والكاتب عموماً) سطوة، وسلطة من نوع ما.. وإذا كنت لا أذهب مع هؤلاء في غلوهم، فلأن ما زعموه ينطبق، أكثر ما ينطبق، على الحالات غير السوية.. إلا إنني لا أجرؤ على رفض كلامهم رفضاً مطلقاً، ونفيه نفياً قاطعاً.. ذلك أننا كثيراً ما نرى المتكلم.. والكاتب يستخدم أنماطاً من القول والتعبير والصور والرموز لا تتمشى مع تجربته الخاصة. ولعل في كلام العميان، مثلاً، دليلاً واضحاً على مدى السلطة التي تمارسها الأنماط المقولية واللغوية

على كلام الفرد.. كما نجد في كلام الأطفال وتعبيراتهم ما يؤكد ذلك أيضاً.. حيث تمارس اللغة على الفرد سلطة تزداد أو تنقص حسب طبيعة الفرد ومقدرته ونموه ومجمل خبراته.. ففي حين نرى أفراداً تتكلم اللغة من خلالهم أكثر مما يتكلمون من خلالها، نجد آخرين يمتلكون ناصية اللغة باقتدار.. ومن طبيعة اللغة الممانعة والعناد.. والمقاومة.. رغم أن الظاهر قد يبدو غير ذلك. والفرد، في تعامله مع اللغة يحاول أن يحسم الأمر لصالحه.. وهذا ما يحدث غالباً، خصوصاً عند منتجي النصوص، إلا أن بعض النقاط، وبعض المناطق في الخطاب الذي ينتجونه تبقى ملتبسة، ويبقى شيء ما بين السطور، لم يستطع الكاتب أو الشاعر التعبير عنه، أو بالأحرى، لم تسمح اللغة بتمريره والإفصاح عنه.

وأرجح أن من أهم (الأسباب التي تدفع منتجي النصوص إلى عدم الإفصاح، مما يجعل نصوصهم ملتبسة ومتشابهة وإشكالية.. ما يلي:

1- كون منتج النص من معارضي السلطة السائدة: (سياسياً، معرفياً، أيديولوجياً.. الخ).

2- كون منتج النص مطلعاً، وعارفاً لما لا يعرفه الآخرون، ويخشى من تصدع الجماعة التي ينتمي إليها إن هو باح بما يعرف.

3- كون منتج النص معبراً عن علاقات إنتاج ما زالت وليدة وغير ناضجة.

4- التقيّة (الدينية/ السياسية/...) وإظهار غير ما يبطن.

5- قوالب اللغة، وأساليبها في التعبير.

6- الصنعة، وما ينتج عنها من تخييل وإغماض وتسبيق وتأخير.

7- ابتداع أساليب جديدة في التعبير، لا سيما في الأشكال الفنية.

وهكذا، فإن الإشكال، واللبس في النص يعود إلى أسباب سياسية أو اقتصادية أو معرفية أو أيديولوجية أو فنية؛ وفيما يخص الأسباب الفنية، فإن الكاتب ينتج نصاً محصناً (فنياً) ضد القراءات الساذجة الكسولة.. نصاً غير مستعد للاستسلام السهل، ولأن يهب نفسه للقارئ من أول نظرة.. نصاً يحاول أن يمانع، وأن يماطل بالمعنى، ليهب للقارئ (المستحق) ذلك الشعور بالسعادة والمتعة، لحظة اكتشاف ذلك المعنى أو طيفٍ من أطيافه، أو لحظة قيامه ببناء معناه الخاص بما يتناسب مع بنيته الثقافية والمعرفية والأيديولوجية والنفسية والاجتماعية..

ومن الملاحظ أن النصوص التي تدعو إلى التأويل، أو بالأحرى، تتحمل التأويل وتسمح به تتميز بما يلي:

**1- الأسلوب البياني (الأدبي)**، بكل ما يتميز به هذا الأسلوب، لا سيما حرصه على ترك مساحات غير مضاءة، وترك فجوات في النص، ليقوم القارئ بملئها بما يتناسب مع إمكاناته، وحالته الوجدانية.

**2- الإجمال، والتعالي عن التفصيلات والجزئيات**، والاعتماد على الكليات، وعلى المنطلقات والمبادئ العامة.

**3- التفرد في استخدام اللغة بصورة شخصية وأصيلة**، سواء استخدام الألفاظ بصرفها عن معناها المألوف والمتداول إلى معان مجازية، أو بابتكار صور جديدة، وأساليب وسياقات لفظية وتعبيرية.. تتولد عنها معانٍ جديدة.. وهذا ما يعرف بلغة الشاعر أو قاموسه، أو طريقته. [8]

أما الأديب فينتج، أو بالأحرى، يخلق نصاً إبداعياً تدخل اللغة طرفاً أساساً فيه، حيث تغدو الكلمة رمزاً أكثر منها معنى، فعلاً لاماضي له؛ فعلاً يبدأ من الاستعمال الخاص والشخصي والمتفرد. الأدب كتابة من نقطة الصفر (كما عنون رولان بارت أحد كتبه) أو هكذا يجب أن يكون. ومن هنا كان الأدب عموماً والشعر خصوصاً توهجاً للغة،

[8] - **المرجع السابق، 12-17.**

وحياة جديدة لها، لأنه يحمّلها من المعاني أكثر مما تعودت أن تحمله، وأكثر مما في الأذهان عادة..[9] وهاجس كل أديب أن ينجح في إقامة علاقات مبتكرة بين الكلمات والجمل، عليها بصماته الذاتية المتمايزة، بقصد خلق التوتر والزخم والإيقاع والانسجام... ومن ثم، إنتاج نص مختلف.

فاللغة في الأدب تشحن بطاقة مستمدة من موهبة الأديب ومن مقدرته.. فتتجاوز ذاتها، وتفيض بأكثر مما تعد به، وتشير إلى أكثر مما اعتادت أن تشير إليه، ومما اعتادت أن تثيره في الأذهان.. لأن الأديب قادر على أن يقوّلها أكثر مما تعلمت أن تقوله (حسب أدونيس)..[10]

يقول (د.اليافي): "الخيال ملكة التحويل، وهو ملكة الرمز، وعالم الرمز واسع، هو عالم الإنسان وعالم الطبيعة وعالم الفكر. والرمز قائم في كل مكان من الكون، والرمز جدلية الظاهر والباطن، والجسم والروح، والاسم والمعنى، المشف والكثيف، المادة والفكر، الشكل والمضمون، الجهر والسر، القريب والبعيد، السهل والممتنع..... وهو موطن الفهم والإدراك والتأويل.... إنه جفر الغيب، ورسالة الذكاء، ولسان التبصر والحزر.. يقول مالا يقال بغيره، وهو كالقطعة الموسيقية لاتنحل مقاصدها بالسماع مرة واحدة، بل تتجدد إيحاءاتها وتزداد معانيها بتجدد سماعها..." ، "د.عبد الكريم اليافي". دراسات فنية في الأدب العربي، (دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1962)"[11] .

**اللغة وحركية التداول:**

وقد قامت في الآونة الأخيرة بحوث علمية لغوية تتعلق بالتراكيب النحوية وصلتها بالمجتمع، وحركيته؛ ويشير (بيريلمان) في هذا الصدد إلى مناسبة (التراكيب) للمجتمعات، كمناسبة تراكيب معينة للمجتمعات التي تقوم على المساواة، والمبادرة الفردية، والحرية، ومناسبة تراكيب أخرى للمجتمعات الاستبدادية المؤسسة على الأنظمة التراتبية..

فقد درس الباحث الألماني (ماتشر) اللغة الألمانية، وتراكيبها في المجتمع النازي، مع مقارنتها بغيرها في مجتمعات أخرى؛ وانتهى إلى أن (الصور النحوية) في مجتمعات المساواة تركز على (المحمولات) التي يعيش القائلون وفق قيمها؛ بينما لغة المجتمعات المتراتبة تعمد إلى التحريض، والحث اللذين يكسبان تراكيبها طابع السحر والتقديس..

وهكذا لا تعود العلامات اللغوية مثل (الأشياء)، بقدر ما هي تتحول هي نفسها إلى (أشياء)، فتحتل مكاناً في سلم القيم، كما تسهم في الشعائر؛ وبينما نجد (اللغة) في المجتمعات الديمقراطية ملكاً لكل الناس، وتتطور بحرية تامة، نجد أن اللغة في المجتمعات المتراتبة يتم تجميدها، بحيث تصير تكتسب طابعاً شعائرياً، ومقدساً..[12]

إن (كلمة) "سولفو" في اللغة الروسية يفيد (القول،أو النطق)؛ وقد ركز عليه الشكلانيون الروس في تحليلاتهم، لأن (الكلمة) في نظرهم – حوار– ، أو – امتداد من القول، والنطق– ، وليست فقط كلاماً مركباً من عناصر صوتية، أو نحوية؛ ويقول (فولوسينوف): " إن الكلمة حقل ذو وجهين؛ إنها تتقرر بمن تصدر عنهم، وأيضاً بمن هي موجهة إليهم"[13]

يؤكد (باختين) على (حوارية) الكلمة في الرواية؛ وذلك– لأن (اللغة) بوصفها الوسط المشخص الحي الذي يعيش وعي فنان الكلمة فيه لا تكون (واحدة) أبداً؛ إنها واحدة فقط بوصفها نظاماً صرفياً، نحوياً، معزولاً عن التأويلات،

---

**[9] – المرجع السابق، ص27.**

**[10] – المرجع السابق، ص28.**

**[11] – المرجع السابق، ص43.**

**[12] – النَصُ والأسْلوبيَّة بين النظرية والتطبيق ، عدنان بن ذريل، من منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000م، ص57–58.**

**[13] – الماركسية وفلسفة اللغة، فولو ستينوف، ص89؛ نقلاً عن المرجع السابق،ص62.**

والإدراكات الأيديولوجية المشخصة التي يزخر بها، ومعزولاً عن الصيرورة التاريخية المستمرة للغة الحية نفسها.. إن دراسة (الكلمة في ذاتها) مع إغفال توجهها خارج ذاتها (عبث) كعبث دراسة المعاني النفسية خارج الواقع الفعلي المتوجهة إليه، والمحكومة به؛ وإن (اللغة الأدبية) بالذات هي دائماً أبعد من أن تكون لهجة مغلقة.[14]

ذهب (تودوروف) إلى أن (النموذج اللغوي) هو القاعدة للنموذج السردي؛ لأن اللغة، في نظره، هي النموذج الرئيسي لجميع المنظومات الدلالية، بنتيجة أنه (العقل الإنساني)، و(الكون) يتصفان ببنية واحدة مشتركة، هي بنية اللغة.[15]

وفي نظر (بارث) يتكون الأدب من خمس شيفرات، كود أوسنن، هي:

*1- الشيفرة التأويلية، والتي تعرض لغزية النص، وتثير السؤالين: ما هذا؟.. ولماذا؟..*

*2- شيفرة التضمين، والتي تلخص الموضوعات التي تدور حول شخصية معينة.*

*3- شيفرة الأحداث، والتي تكشف عن السلوكات..*

*4- الشيفرة الثقافية، والتي تعرض معلومات اجتماعية، وعلمية عن أفكار، وقيم.*

*5- الحقل الرمزي، حيث تتعدّد المعاني، وتصبح قابلة أن تنعكس كموضوعة..*

هذه (الشيفرات) ليست بمنزلة (النموذج)؛ وإنما هي أمثلة على (كلام) لا يملك أية لغة أولية؛ إنها كما يقول (بارث) – تخلق نوعاً من الشبكة، إنها تخلق موضعاً يمر النص بكليته من خلاله– ..

وليس لهذه (الشيفرات) قيمة أدبية، وإنما هي تؤدي وظيفتها كجزء من – الثقافة– ؛ وفي هذه الحال، لا تعني (الكتابة) عن الواقع ربط كلمة بشيء، وإنما ربط الواقع بالنص؛ ولذلك يغدو (الواقع) نوعاً من النص، يتألف من شيفرات..

وبذلك يكون الأدب (تناصاً)، أو تبادلاً نصياً، يجسّد ماهو قائم وراء حدوده من حقيقة، أو مؤلف، أو قارئ؛ الأمر الذي يبعد (الأدب) إلى مسافة شاسعة عن أية طريقة تمثيلية" مفهوم (التناص) يعود إلى (جوليا كريستييفا)، والتي كانت متأثرة فيه بآراء (باختين) في الحوارية؛ وهي تقصد منه التفاعل، والتداخل اللذين بين النصوص، وأثرهما في دلالة الكتابات التي تحتضنه؛ وقد شاع المصطلح، واستهلك بشكل واسع حتى اختلط بمفاهيم أخرى، مثل التضمين، والاقتباس وغيرهما؛ إلا أنه متميز عن هذه المفاهيم، وكانت (جوليا كريستييفا) تزيد تبديله بمصطلح (نقل دلالي)، أو (تحول دلالي)، لإظهار وظيفته، كتفاعل دلالي بين النصوص ينتج عنه (تحول) في معانيها؛ إذ أن (التناص) في حقيقته هو في (تولد) نص عن نص آخر، وبالتالي دخول في علاقة معه، هي علاقة حوارية، وسيميولوجية علامية.[16]

**مرجعيات اللغة:**

وقد أثارت ترسيمة جاكوبسون الشهيرة التي تتحدث عن وظائف اللغة اعتراضات لم تتوقف حدتها إلى الآن.

ف(جاكوبسون) يرى، كما يرى (سوسير)، أن وظيفة اللغة تكمن في تقديم المعلومات بواسطة مدونة، بينما يرى المعترضون أن اللغة أكثر من ذلك بكثير. اللغة ليست مدونة، أي أداة أو وسيلة تواصل إنما هي تطرح قواعد لعب

---

**[14] – المرجع السابق، ص70.**

**[15] – المرجع السابق، ص077.**

**[16] – المرجع السابق، ص83، وقد أصدرت مجلة (الأسبوع الأدبي) التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق ملحقاً خاصاً عن التناص، هو الملحق 61 في 1993/11/18؛ كما تجد في مجلة (المعرفة) التي تصدرها وزارة الثقافة بدمشق مقالة عن التناص بقلم د. شكري الزاهي، في العدد 353، شباط 1993.**

تختلط اختلاطاً كبيراً بالحياة اليومية. وتعددت الآراء في تعريف الملفوظية. فهذا (بينفينيست) يقول: "إن الملفوظية هي عملية تشغيل اللسان عن طريق فعل استخدام فردي"، أما ديكرو وأنكومبر فيريان فيها ذلك النشاط اللغوي الذي يمارسه المتكلم في لحظة كلامه، كما يمارسه المستمع في لحظة استماعه.[17]

يأخذ تشومسكي على اللسانيات البنيوية أنها لم تهتم بخاصية يعتبرها أساسية من خواص اللغة وهي الإبداعية، أي قدرة المتحدث –المستمع على إنتاج جمل اللسان وتأويلها كافةً، ولا شيء غير هذه الجمل التي لا حدود لها، وذلك انطلاقاً من عدد محدود من المقولات والقواعد التي تشكل كفاءة ذلك المتحدث– المستمع؛ ولإيضاحها فإن القواعد التوليدية تستبدل:

–المفهوم السكوني للغة بمفهوم آخر ديناميكي.

–إدراك الوقائع فقط على مستوى مقطوعات المورفيمات والفونيمات، بفرضية مجموعة من المستويات الواقعة تحت مجموعة من قاعدات التحويل للانتقال من البنية العميقة إلى البنية السطحية.

–الوصف البنيوي لمادة بحث معينة، بسلسلة تصورية على شكل اشتقاقات ذات نمط رياضي (وبالتالي افتراضي– استنتاجي) من العمليات المنظمة تكون نتيجتها جملة ما.

إن مفهومي (المستوى)، و(العملية) اللذين يشكلان جزءاً من الجهاز المفهومي الأساسي للقواعد التوليدية، نجدهما في بعض نظريات الملفوظية، لكن هذا التماثل في المصطلح لا يعني أن شومسكي يعتمد منظوراً ملفوظياً.

أ– ال "المتحدث– المستمع المثالي" لا نتصوره أبداً كموضوع للملفوظية ترتبط به توجيهات Modalisations مختلفة قادرة على التأثير الحاسم في معنى الملفوظ. إنه تجريد بحت، ونوع من الآلة التي تتحقق من قواعدية[*] Grammaticalite الجمل – وهو غير قادر على الاندماج في سياق موقعي Situationnel أو اجتماعي أو نفسي أو تحليلي نفسي.

ب–المنظور الملفوظي– وهنا تكمن النقطة الهامة – يتميز، قبل أي شيء، بموقف أقل تقييداً من موقف البنيوية في تحليل المعنى، أي أنه يتميز بفهم موسع لعلم الدلالة. عند هذا المستوى نرى أن اللسانيات الشومسكية لا تتجاوز اللسانيات البنيوية على الإطلاق. فأعمال كاتز وفودور التي عاد شومسكي إليها في الجزء الثاني من نظريته كما عرضها في كتابه: (أوجه النظرية التركيبية) لا تمثل أبداً سوى الاندماج في النموذج التوليدي للتحليل المدلولي[**] Componentielle والتحليل الدلالي. أبعد ما يكون عن أن يكفي لإيضاح معنى الإنتاج اللغوي الحقيقي، أي ذلك الإنتاج غير المنفصل سطحياً عن شروط الإنتاج.

والحالة هذه، فإن اهتمام التوليديين في ربط المعجم /Lexique/ بعلم التراكيب Syntaxe (وهو علم لم يكن قائماً عند البنيويين) قد يمكن اعتباره بمثابة تقدم. لكن، في الواقع، هذا الاهتمام يترجم بتكوين قواعد للاستبدال المعجمي[*] Insertonlexicale غالباً ما تظهر (القواعد) على أنها زائدة أو مصطنعة.

---

**[17] – الملفوظيّة، جان سيرفوني– ترجمة الدكتور قاسم المقداد – من منشورات اتحاد الكتاب العرب– 1998،ص7.**

**[*] القواعدية: أي صحة الجملة من الناحية القواعدية [المترجم].**

**[**] طريقة في التحليل تهدف إلى إبراز شكل الوحدات الدنيا للدلالة (المكونات الدلالية، السمات الدلالية أو السيمات) في داخل الوحدة المعجمية (الصرفيم أو الشكيل أو الكلمة). ويقول قاموس مارتينيه للسانيات: أنه تحليل المدلولات Signifiés إلى وحدات مميزة. ويضيف قاموس اللسانيات لديبوا وآخرين: أن التحليل قد ولد من ملاحظة الانثروبولوجيين الأمريكيين حول عدم كفاية المفاهيم التي تكونت في الحضارات الهندو – أوربية وبهدف وصف الثقافات الأمريكية – الهندية مما أدى إلى تكون طرائق تهتم بالمجال الفكري أكثر من اهتمامها بالمجال اللغوي.**

**[*] –الاستبدال المعجمي: في القواعد التوليدية يعني استبدال الرموز المصطنعة بعناصر Ltems معجمية تبعاً لسماتها [المترجم].**

ت–صحيح أن شومسكي في أحدث مراحل نظريته قد قام بتعديل وجهة نظره حول المكون الدلالي Composante Semantique ليقرر في نموذجه مكاناً لظواهر مثل: الافتراض المسبق، والتركيز، والإبراز[**] Topicalisation وبالتالي ليقترب بذلك من الإشكالية التي تهمنا؛ لكن –بالنسبة إليه– فتلك إضافات لا تسيء إلى الفرضية التي صاغها منذ عام 1957 والقائلة: إنّه من المفضل وضع البنية التركيبية في أعمق مستوى، أي في نقطة انطلاق الاشتقاقات التي تفضي إلى الجملة.

لهذا ترانا نعود إلى شومسكي بشكل خاص، حينما نقرأ في مقدمة كتاب برنار بوتييه: اللسانيات العامة ما يلي: ".. إن ندهش من المكانة التي آل إليها علم الدلالة. فمن غير المعقول أن استطاعت بعض المدارس اعتبار علم التراكيب أساساً لاهتماماتها. لكن الحسّ السليم هو الذي انتصر." [18]

الاتجاه السائد الآن هو توسيع مجال اللسانيات.[19] وهذا التحول الخارجي، وذلك "التوجه الجابذ" (هذه المصطلحات لبرنار بوتييه) تمثلها السيميائية الألسنية التي طرحها باتريك شارودو في كتابه (اللغة والخطاب) وهو يقدم لنا أفضل مثال على انفتاح اللسانيات الفعال على معارف أخرى لا سيما على علم الاجتماع وعلم النفس.

كما نرى أيضاً توسيعاً أو على الأقل، تغيراً جذرياً في المنظور في نظرية فرانسيس جاك الحوارية DIALOGISME. والاتجاه الحواري يعني دراسة الملفوظية باعتبارها انخراطاً في المجتمع ودلالة ونشاطاً ذاتياً متبادلاً. لقد كان تأثير المخاطب على المضمون البراغماتي للملفوظات وعلى قيمته معترفاً به ومشاراً إليه سابقاً في الأعمال الأولى المعاصرة حول الملفوظية، لكن أحداً لم يذهب إلى حد أن يجعل منه معطى أساسياً يوضع على نفس صعيد قصدية المتحدث أو يجعل منه بشكل عام وظيفة للفاعل –الناطق وقد كان للتفضيل الممنوح لهذا الفاعل الناطق أثر في تشويه العلاقة الخطابية المتبادلة INTERLOCUTIVE. وما يقترحه فرانسيس جاك هو تركيز دراسة الملفوظية على العلاقة، واعتبار العلاقة التي تقيمها الملفوظية علاقة أساسية لا يمكن اختزالها.

هناك طريق آخر ينبغي استكشافه (وسيكون هذا آخر أمثلتنا حول الاختزالية المضادة): هو إعادة الاهتمام بزمن الملفوظية بالشكل الذي تدعونا إليه نظرية غيوم بكل ما تنطوي عليه من صرامة التأويل المتعلق بـ (الزمن التقويمي) TEMP APRECIATIF. من هذا المنظور ينبغي أن يفهم زمن الملفوظية باعتباره زمناً تقتضيه كافة العمليات العقلية وربما الفيزيائية المنجزة حينما نمارس فعالية تعبيرية معينة ACTIVITE DEXPRESSION.

---

**[**] عملية لسانية تنطوي على تحويل مكون الجملة إلى موضوع بارز (مبتدأ) بحيث تصبح بقية الجملة تعليقاً عليه (خبر) في عملية الإدماج أو الإدخال يقوم الإبراز بتحويل الركن الاسمي الفاعل إلى مبتدأ للجملة. لكن قد يكون هناك إبراز مكون آخر، كالركن الاسمي المفعول Objet أو الركن الجاري فتحوله إلى ركن فعلي كما هو الحال في الجملة التفخيمية: خالد، رأيته البارحة؛ في دمشق كان الاحتفال.. [المترجم].**

**[18] – المرجع السابق، ص14–15.**

**[19] ينبغي مع ذلك، الإشارة إلى أن العودة إلى نظرية لا تتناسب مع هذا الاتجاه، وهي النظرية المسماة "التمثيلية" حيث تعتبر اللسان "منظومة من العلامات التي تضطلع بوظيفة تمثيلية"، وأنه "مجموعة من الأسماء القادرة على الإشارة إلى حالات الأشياء أو الأحداث". وهذه النظرية لا تتضمن أي قيمة براغماتية أرادت النظريات الملفوظية إدخالها فيها. فلكي تبقى اللسانيات دقيقة تماماً لا بد من تخليص اللسان من هذه الإضافات، وعلى هذا ينكب بيريندونيه (الذي أخذنا عنه التعريفين السابقين) في كتابه مبادئ البراغماتية الألسنية، منشورات مينوي، 1981. المهمة ليست سهلة حينما يتعلق الأمر بالإنجازات، وليست بأقل سهولة عندما ينبغي علينا البرهنة على أن الموجهات MODALITES الاستفهامية أو الأمرية JUSSIFS ليست بدائية. لهذا تبدو البَرَهَنَة أحياناً وكأنها متناقضة.**

**لكن لا نقاش في أهمية هذا المشروع، لأنه يتعلق بوجهة نظر هامة. وبما أن المؤلف يستخرج مقتضيات الاختيار النظري الذي يحفز هذا المشروع، فهو يقدم لنا إمكانية مقارنة كلفة هذه النظرية النهائية بكلفة النظريات الملفوظية مهما كان نوعها. ومفهوم كلفة النظرية هذا، أساسي في اللسانيات لهذا سنعود للحديث عن النظرية التمثيلية بما في ذلك نتائجها.**

يشير م. توسان TOUSSAINT في دراسته الموسومة "**حول الزمن والملفوظية**[20]" إلى أن هذه العمليات تتضمن بناء المدلولات: فبالنسبة لواحد من أتباع النظرية الفيوميّة [ نسبة إلى غيّوم] فإن هذه المدلولات لا توجد في حالة بنى ثابتة إنما تنتج عن الاعتراضات التي يمارسها العقل على حركة بانية كلما وجد الفرد نفسه في فعالية اللغة. عندئذ لا بد من إعادة تأويل التفريعة DICHOTOMIE التي تقابل التمثيل بالتعبير (حتى تفريعة اللسان/ الخطاب، بحسب رأي توسان) لأنه لم يعد هناك تمثيل بدون "اندفاع خطابي"، وبدون رغبة في التعبير أو تعبير بدون تمثيل.[21]

إحدى أطروحات النفسالية (علم النفس الآلي) تقول إن ذكر اللغة لظاهرة مسجلة في الزمن، يتطلب وجود نقطة ثابتة، ذات طبيعة مكانية، يمكن تصور تطور تلك الظاهرة انطلاقاً منها. هذا، الـ هو، السند الأدنى، والمجرد جداً، لعمومية لا يمكن تجاوزها، هو الذي يشكل دعامة الأفعال وحيدة الشخص.

ما يرمز إليه الـ هو في هذه الحالة، يعني بكل بساطة ربط الحديث بعالم موجود قبله ويشكل حتماً جزءاً منه، وهو العالم الذي سماه جورج موانيه (شخص العالم) وبيّن أن شخص العالم هو شخص أساسي وأن أي نوع آخر من الأشخاص لا يتدخل إلا بالنيابة عن ذلك الشخص.[22]

من المفيد الإشارة إلى أنه يمكننا، بلوغ النتائج نفسها بطرق أخرى غير تلك التي سلكتها النفسالية.

آلان بيريندونيه A.BERRENDONNER في فصل من كتابة **مبادئ البراغماتية الألسنية**، بحث عن مصادر قيمة الحقيقة المعزوة إلى الملفوظات التقريرية، وعن الماهيات التي يكون الملفوظ صحيحاً أو خاطئاً بالقياس إليها، بيريندونيه هذا، سيعثر على شخص العالم وذلك بعد أن ميز ثلاثة مصادر ممكنة لحكم الحقيقة (الصحيح):

1-المتحدث 2-الرأي العام= ON، 3-**عامل محقق يسميه** (شبح الحقيقة) لأن اللسان، كما يقول، (لا يسمح له بالظهور إلا عن طريق العدم) وبخصوص هذا المصدر يصرح المؤلف قائلاً: "قد لا يكون شبح الحقيقة هذا تناسخاً (تحولا) AVATAR- أو ربما، شكّلاً قانونياً CANONIQUE -(لشخص العالم) هذا- أو لذلك لـ هو الذي بين كل من غيوم GUILLAUME وموانييه MOIGNET أنه ليس مجهولاً (لا شخصياً) على الإطلاق، وأنه يمكننا اعتباره بمثابة إشاري DEICTIQUE من رتبة الأشياء .[23]

يمكننا تقريب هذه الاعتبارات من الدراسة التي كرسها د. مارتان للفاعل المنطقي، في كتابة: من **أجل منطق للمعنى**.

الفاعل المنطقي هو البرهان الذي نحتاج إليه لنقرر شيئاً آخر غير اللغة في مقابل اللغة لأن أي لغة كانت يجب أن تقوم على شيء آخر غير ذاتها -مع أنها تستطيع أيضاً أن تقدم شيئاً في هذا المجال، كما يبينه الاستخدام الماوراء -لغوي METALINGUISTIQUE للألسن الطبيعية. كتب مارتان يقول: (**البرهان هو مرجع العالم لا أكثر، مهما كان هذا المرجع مجرداً**).

---

**[20] مجلة لانفاج/تونس/، عدد 70، حزيران 1983، ص ص1070-126.**

**[21] - الملفوظية،، ص23-24.**

**[22] اقتطفنا هذا الاستشهاد عن كتابه: انتظامية اللسان الفرنسي منشورات كلينكسبيك، عام 1981، ص93. وللتعمق في تفاصيل منظومة الشخص يمكنكم الرجوع للفصول الثلاثة المخصصة لهذه المسألة في كتاب: دراسات نفسالية فرنسية، منشورات كلينكسبيك، 1974- ص79 إلى 97.**

**[23] - الملفوظية،ص30-31.**

في الألسن الطبيعية، فإن العملية الأساسية التي تنطوي على الإحالة إلى العالم تكمن في (التعيين[*] DESIGNATION) الذي يركب المدلولات على أشياء العالم) وليس له أي علامة فارقة MARQUE في كل الألسن لكن له واحدة في اللسان الفرنسي: وهي الـ IL المشتركة كما يشير إلى هذاج. موانييه في كتابه: **انتظامية اللسان الفرنسي**– بين الضمير IL هو، وأدوات التعريف: LE, LA, LES (تعريف مذكر، تعريف مؤنث، تعريف جمع).[24]

**المرجعيات الزمنية والمنظومة الكلامية:**

زمن الملفوظية أي الزمن الذي يتحدد فيه الحدث الذي هو إنتاج الملفوظ، ويمكن الإشارة إليه داخل الملفوظ نفسه، ومن بين الكلمات التي تؤدي هذه الوظيفة نذكر أولاً **الآن** أو **اليوم**. طبعاً هذه العلامات هي إشاريات مثلها مثل **أنا** و**أنت**. لكن المرجع الزمني DEIXIS TEMPORELLE لا يتحدد بالأشكال التي تحيل إلى حاضر الملفوظية لأنها تتضمن أيضاً الأشكال التي تسم الماضي والمستقبل ولا يتحدد مرجعها إلا بالنسبة لذلك الحاضر. من فئة الظرف نذكر: **أمس**، قبل **الأمس** بخصوص الماضي، و**غدا** وبعد **غد**، بخصوص المستقبل. فكل مرة نلفظ فيها (أمس) فإن هذه الكلمة تدل على اليوم الذي سبق اليوم الذي أنتجت فيه الملفوظية و(غدا) تدل على اليوم اللاحق وهلم جرا.

وفي فئة الفعل القواعدي VERBE ينبغي ذكر كافة الأشكال الشخصية للماضي وللمستقبل. وكل زمانية يعبر الفعل عنها والتي تشكل في بعض الألسن، كاللسان الفرنسي دعامة هامة للزمانية المعهود بها إلى الملفوظ، هذه الزمانية لها قدرة استدلال هي لحظة الملفوظية، وأن أكثر الأشكال قدرة على التعبير عن هذه اللحظة بشكل مباشر هو زمن الحاضر اللغوي فمن أين جاءته هذه القدرة؟ وبتعبير آخر ما الزمن (الحاضر)؟[25]

**د/وجهة نظر غيوم GUILLAUME:** تبدو لنا الوقائع التي تستند الحجة إليها غير قابلة للنقاش ومع هذا نود أن نبين أن أخذها بعين الاعتبار لا ينقص من شأن انتظامية الفعل القواعدي SYSTEMATIQUE DU VERBE عند غيوم[(26)]وهي الانتظامية القائلة: إن الصيغة الشخصية (المعلومة) للادلال INDIXATIF لا يمكن أن تكون لا زمنية في جوهرها، والصيغ الفعلية الوحيدة التي تستحق هذه التسمية هي الصيغ المصدرية وصيغة اسم الفاعل أو المفعول.

لكن ما هي الصيغة الإدلالية INDIXATIF في الحقيقة؟ إنها بالنسبة لغيوم، تلك التي ترتبط بالدرجة القصوى لتحقيق القضية، بمعنى أنها تحدد القضية بالنسبة لشخص المتحدث وفي لحظة فعل اللغة. والحاضر يشكل جزءاً منها (وليس هناك أي اعتراض ممكن على هذه النقطة). من الضروري إذاً وفي إطار هذه النظرية، اعتبار "الحاضر" بمثابة شكل زمني. لكن هذا لا يعني أن المؤلف يخلط الحاضر المعيش بالحاضر اللغوي إذ ليس هناك لغوي شدد أكثر

---

**(*) التعيين DESIGNATION هو أن تحيل العلامة إلى شيء أو قضية أو نوعية الخ وهذا الذي تحيله العلامة هو الواقع الماوراء لغوي [أي الواقع الذي لم يدخل بعد في إطار اللغة] كما بنته التشكيلات الإيدلوجية (ثقافة، تجربة) لجماعة بشرية معينة. وما تحيل إليه العلامة نسميه DESIGNATION – المعني في مقابل الموحى به DENOTATUM. ويبدو المعني من خلال التفكير السيميائي السطحي، وكأنه يتماهى مع الشيء. وعلى هذا فإن المعني بالنسبة للعلامة شجرة، سيكون شجرة محددة في الواقع الماوراء لغوي، ومع ذلك، فإن الكلمات تحيل أيضاً إلى قضايا (مثل الفعل يركض، الاسم: الركض) وإلى نوعيات (كالصفات: حسن، والظروف) ونشير أيضاً إلى أن وجود علاقة تعيين لا يقتضي أبداً وجود الشيء أو المرجع، فمثلاً العلامة غول هي في علاقة تعيين مع كائن لا وجود له [المترجم].**

**[24] – الملفوظية، ص32.**

**[25] – السابق، ص35–36.**

**[(26)] ويلمح سيربا إليها عدة مرات، ويقومها ميللية بشكل صريح (لكن متسرع) بأنها تمثل للسانيات التي تخلط الزمن الكلامي (الفعلي) بالزمن المعيش والتي "لا تزال" سجينة التناقض الذي يصادفه حتماً حينما نريد تعريف الماضي المعيش: "فهل هو نقطة رياضية...، ومجرد حد بين الماضي والمستقبل.. أم هو الواقع الحالي الذي يمكننا أن نسجل فيه قضية ما. وبالتالي يقدم لنا.. امتداداً معيناً؟" س.ميلليه، مرجع مذكور، ص7، العمود الثاني.**

من غيوم، على التمييز الذي ينبغي إجراؤه بين العالم الماوراء لغوي[27]وبين التمثل العقلي الخاص لهذا العالم الذي هو اللغة القائمة، وهذا التمييز نجده في ملاحظة يمكننا قراءتها في كتاب غيوم: (الزمن والفعل)، وهي: إن "الفترة الحاضرة لا تلتقي أبداً بالضرورة مع الحاضر الحقيقي"[28]

فما هو "الحاضر" إذاً بالنسبة لغيوم؟ إنه واقع هندسي (معماري) وحركي في الوقت نفسه.

إنه هندسي معماري لأن العقل إذا أراد تمثل الزمن فإنه يستخدم القدرة التي يملكها لكي يتمثل الفضاء (المكان). لهذا فإن المنظومة الكلامية SYSTEM VERBAL التي هي تمثل خاص باللسان لإدراك أن الإنسان يملك الوقت، هذه المنظومة تجد شكلاً طبيعياً لها في الترسيمات المكونة من خطوط مستقيمة (ذات اتجاهات متشابهة أو متقابلة) متتابعة أو على العكس، منضدة فوق بعضها. وفي اللغة الفرنسية يشكل التناضد إحدى ميزات (الحاضر) والقطع المتناضدة ذات التوجهات المتعاكسة تمثل جزأين من الزمن اللغوي أحدهما جزء من المستقبل والثاني جزء من الماضي.

**وهو حركي** CINETIQUE لأن المدلول اللساني لصيغة نحوية ما، لا ينبغي أن يفهم على أنه نقطة ثابتة، إنما حركة يمكن للفكر التقاطها في مختلف مراحل تطوره. والإدراك يكون مبكراً أو متأخراً نوعاً ما، تبعاً لأثر المعنى المقصود حين القيام بفعل تعبيري. في حالة الـ "الحاضر" تكون الحركية مزدوجة:

1- فمن جهة فإن الـ (الحاضر) يسعى إلى حد أقصى من الاختزال لأن دوره في تمثيل الزمن الذي هو المنظومة الكلامية الفرنسية هو دور تفريقي إذ يفرق (يفصل) بين الاتجاهين المتعاكسين، أي الماضي والمستقبل، وحتى لو تم اختزال جزأي الزمن المتناضدين إلى كمية متناهية في الصغر، واللذين يشكلان الـ "الحاضر" فإنهما يبقيان فاصلين[29]

2- ومن جانب آخر فإن الحاضر المكون بهذا الشكل، يحمل معه حركة CINETISME نرى بمقتضاها لحظة إثر لحظة في الحاضر نفسه جزءاً من المستقبل وهو يعمل على تحويل نفسه إلى جزء من الماضي ليكن السهم العمودي الدال على الحركية المذكورة[30]

أما من جهة الإدراكات التي يمكن للعقل أن يقوم بها من خلال مقطع عرضي فلا يشير غيوم إلا إلى اثنين منها:

-الإدراك المبكر الذي يقدم صورة عن (حاضر) يُتضمَّن فقط فيها، والتي ترتبط بها استخدامات مثل: بيير يسافر بعد الظهر.

-الإدراك المتأخر الذي يظهر فيه (الحاضر) بجزيئه المتناضدين ...، ....، ومثال الاستخدام المناسب الذي يقترحه غيوم هو: بيير يعمل: أي: (في طور العمل).

لكن لا شيء في النظرية يبدو مانعاً، لأن نقدم فرضية أن هناك ثالث أكثر تأخراً. ولهذا استطاع ج. موانيه أن

---

**[27] سواء تعلق بواقع خارجي عن الكائن البشري، أم بواقع نفسي.**

**[28] أي الحاضر اللغوي بالحاضر المعيش.**

**[29] ليس واضحاً كيف تكون هاتان الفترتان (الماضي والمستقبل) ملائمتان إذا خلا تصورنا العقلي للزمن من فترة ثالثة، لا هي ماضية ولا مستقبلية، فإذا لم نقم بإدخال (الحاضر) في أبدية الزمن، فلن تتضمن المنظومة أي تقسيم إلى مراحل (فترات): لولا انقطاع الحاضر لظل الزمن بلا شكل (الزمن والفعل ص31).**

**[30] 0حول الفعل التفريقي المزدوج للحاضر في التمثيل الفرنسي للزمن في كتاب: اللغة وعلم اللغة، ص211، دراسة (الحاضر) هذه جاءت بعد (1951) الزمن والفعل 1929 (بين هذين التاريخين تطورت نظرية غيوم حول الفعل تطوراً ملحوظاً. ولزيادة معلوماتك عنها لا بد من قراءة ثلاث مقالات أخرى أعيد نشرها في: اللغة وعلم اللغة: تمثل الزمن في اللغة الفرنسية (1و2، ص184-207، والفترات الزمنية ومستوياتها في منظومة التصريف الفرنسية. ص25-271.**

يقول بخصوص: **يخرج من هنا** (خرج للتو)/ أنها جملة مكونة وفقاً للنمط الزمني CHRONOTYPE[31].... هناك باحثة لسانية ذات اتجاه غيّومي، هي أ. فاسان A. VASSANT تعتمد في مقالتها المكرسة لزمن الحاضر[32] وجهة نظر مختلفة قليلاً حول الإدراكات SAISIES الثلاثة وتقدم دراسة مفصلة حول آثار المعنى المرتبطة بها فتقوم بإدراج النزعة الإدلالية SEMANTISME الفعلية أو السياقية في التعريف اللغوي لشكل (الحاضر) وإحدى الخلاصات المقترحة تقول: إن "الأمثلة التي جرى تحليلها تبرهن على أن القاسم المشترك بين كافة استخدامات الحاضر تكمن في بنائه الحركي العمودي، وهو بناء يسهل علينا إدراك الحدث وهو في طور الإنجاز الشامل أو المنجز جزئياً من الناحية النظرية، على اعتبار أن المنجز أو الإنجاز يمكنهُ تقريباً بلوغ الشمولية وبتعبير آخر، فإن ما هو أساسي في قيمة "الحاضر" هو واقعه الحركي، والصورة التي يقدمها عن الحدث هي أساسا صورة توجه استشرافي أو استعادي. هذه النبذات عن نظرية غيوم، تبين أنها لا تخلط الحاضر اللغوي بالحاضر المعيش. وأنها تقبل التناقض الذي قد يتصف به هذا الأخير[33]فلا يبدو لنا ذلك عيبا: فتمثلنا للزمن، مهما كان مجرداً، ومهما كان مفصولاً عن تجربتنا له، لا يمكنه [التمثل] أن يكون مستقلاً تماماً عنها، وإذا انطوت هذه التجربة بشكل إجباري على الحدس المتناقض لامتداد يكون في الوقت نفسه نقطة، فسيكون من الجدي أن تقوم النظرية بإبراز[34] ذلك وإذا كان هذا الحدس مظهراً أساسياً لتجربتها حول الزمن فالاحتمال قليل بأن لا يوجد تمثل للغة يعكسها بشكل من الأشكال.[35]

**تعريف مفهوم الفعل ACTE** : مفهوم الفعل بالنسبة ليبريندنيه، لا ينفصل عن مفهوم الحركة، GESTE. إذ يمكننا التصرف AGIR دون تحريك اليدين أو القدمين أو أي عنصر آخر من أعضاء الجسد. إذاً فالكلام نقيض العمل أو الفعل (وبهذا يعاد الاعتبار للحدس الذي يتجلّس في التعابير الشائعة مثل "**هذه ليست سوى كلمات**" أو"**يكفي كلاماً، يجب أن نفعل**". الفعل الوحيد الذي ننجزه حينما نتكلم، هو "القيام بمجموعة حركات صوتية وإيقاعية تفصح عن نشاط التركيبة الركنيّة[36]بمعنى آخر هو فعل كلامي أو ملفوظية بأشد معاني العبارة حرفية.[37]

**في سعة العربية:**

ومن الطريف لمعرفة سعة هذه اللغة ما نقله (( صاحب " المزهر " عن حمزة الأصبهاني : أن الخليل ذكر عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل من غير تكرار وهي اثنا عشر مليون بناء وثلاثمائة وخمسة أبنية وأربعمائة واثنا عشر ( 12305412 )) [38] وما ذكره د/ محمد نعمان الدين الندوي في مجلة الأدب الإسلامي قال: (( عدد الألفاظ المستعملة من اللغة العربية خمسة ملايين وتسعة وتسعون ألفاً و أربعمائة لفظ [5,099,400]، من جملة ستة ملايين وستمائة وتسعة وتسعين ألفاً وأربعمائة لفظ [6,699,400] ، بينما نجد الفرنسية لا تحتوي إلا على خمسة وعشرين ألف كلمة(25000) ، والإنجليزية على مائة ألف كلمة(100000) فقط) [39]. ويقول الألماني فريتاغ : (( اللغة العربية أغنى لغات العالم )) .

---

**[31] انتظامية اللغة الفرنسية، ص67.**

**[32] التأخر والسقوط في تحليل الزمن الحاضر الفرنسي، في علم النفس الآلي للغة، مهداة إلى روش فالان، ص284-309.**

**[33] انظر أعلاه، ص42، ع2.**

**[34] وهي لا تستطيع ذلك إلا إذا كانت نظرية حركية للغة، مثلها مثل علم النفس الميكانيكي.**

**[35] – الملفوظية، 38-40.**

**[36] –مبادئ في البراغماتية الألسنية مذكور، ص81.**

**[37] – الملفوظية، 107.**

**[38]– المزهر في علوم اللغة وآدابها: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي 74/1 تحقيق أحمد جاد المولى و علي محمد البجاوي و محمد ابو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي ، مصر .**

**[39] لغة القرآن الخالدة بين مقومات الخلود ومظاهر الجمود مجلة الأدب الإسلامي/الأردن/ عدد 7 السنة الثانية/ 1995م ص/73**

## خاتمة:

لدى بحثنا عن ماهيّة اللغة و وظائفها يتبين لنا أن اللغة كماهيّة قادرة على السلوك مسلكاً مادياً ، وبالتالي فإنه من الممكن تداولها كسلعة قابلة للقياس من جهة، ومؤدية لوظائفها المختلفة من جهة أخرى، كما أنها متعددة الوظائف، وقابلة للتكيف مع المتطلبات المختلفة التي تطلب منها، وهي في سيرورة الاستثمار تعبر عن قيمة ذات طابع معنوي ومادي في الآن ذاته، كما تسلك سلوكاً شديد التعبيرية في حركيتها، وهي ليست عشوائية النظام، بل ترجع إلى مرجعيات تصدر عنها، وتتكيف وفق توجيهها، ويشكل الزمن جزءاً حيوياً من أجزاء المنظومة الموجهة للنظام اللغوي ، وبالعموم فإنه تمّة جدليّة متفاعلة بشدة بين الماهية اللغوية وسلوك الاستثمار اللغوي ، وهي التي تكسب اللغة هويتها العامة ، وقيمتها التداولية في سوق اللغات العالمية .

## المراجع:


1. الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام، سلسلة كتاب (الأمة)، ع/84 رجب1422هـ .
2. انتظامية اللسان الفرنسي، منشورات كلينكسبيك، عام 1981.
3. الخصائص، أبو الفتح ابن جني، تح/ محمد علي النجار، عالم الكتب.
4. التأخر والسقوط في تحليل الزمن الحاضر الفرنسي، في علم النفس الآلي للغة، روش فالان.
5. دراسات نفسالية فرنسية، منشورات كلينكسبيك، 1974 .
6. سيكولوجية اللغة والمرض العقلي د/ جمعة سيد يوسف، سلسلة عالم المعرفة 1990/1/145م.
7. في التحليل اللغوي، د/ خليل احمد عمايرة، مكتبة المنار، ط/1987،1م.
8. لغة القرآن الخالدة بين مقومات الخلود ومظاهر الجمود، مجلة الأدب الإسلامي، عدد 7 السنة الثانية/ 1995م .
9. مجلة (الأسبوع الأدبي)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ملحق خاص عن التناص، الملحق 61 في 1993/11/18.
10. مجلة (المعرفة)، وزارة الثقافة، دمشق مقالة عن التناص، بقلم د. شكري الزاهي، في العدد 353، شباط 1993.
11. المزهر في علوم اللغة وآدابها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، مصر .
12. الملفوظية، جان سيرفوني، ترجمة الدكتور قاسم المقداد، من منشورات اتحاد الكتاب العرب– 1998.
13. لنَصُّ والأسْلوُبيَّة بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، من منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000م.
14. النصّ والممانعة، محمد راتب الحلاق، مقاربات نقدية في الأدب والإبداع–منشورات اتحاد الكتاب العرب– 1999.